نجود بلعالية

جَلْسَة مُغْلَقَة

نصوص قصيرة

جَلْسَة مُغْلَقَة

- جَلْسَة مُغْلَقَة
- نجود بلعالية
- الناشر: لا أحد

للتواصل مع الكاتب:

Facebook : @Noudjoud.Belalia

- مصممة الغلاف: أمل فرحات

lnstagram: @mo7bat.achada

Facebook: @ mo7bat.achada

- 2019

جَلْسَة مُغْلَقَة

(نصوص قصيرة)

نجود بلعالية

إهداء

إلى صديقة.. يصعب أن تتكرر مرتين: "أمل"

ثمّ إلى المتعاركين مع أنفسهم.

جميع النصوص المنشورة في هذا الكتاب، كتبت على فترات متباعدة بين 2016 و 2018، ونشرت على صفحة الكاتبة، وقد أُجريت عليها بعض التعديلات على الصياغة.

جُسور

صمت

نصمت أحيانا لأننا استمعنا إلى كلّ الذي كان يجب أن يقال فقيل، فلم يعد بجعبتنا ما يستحق أن نستفرغه بالتكرار... ونصمت أحيانا أخرى لأنّنا عاجزون عن تسلق سلم الحوار، فنبتلع أصواتنا كي لا يفضح الكلام جهلنا وعدم درايتنا، وفي أحيان أخرى نحن نرغم أنفسنا على عدم النطق بما من شأنه أن يقلب طاولة النقاش إلى جدال طويل قد يفسد للودّ قضية .

***

ثمة صمت قاتم في تفاصيله، يطوقه التوتر، والقلق، وارتفاع الضغط، والشعور بأن قلبك يكاد ينخلع من صدرك، يغدو الواحد منا فيه كأرجوحة مهترئة تصفعها الرياح من كل المآخذ، فلا نسكن من بعدها إلا بتوقف الرياح أو أن ينقطع الحبل فنرتطم شرّ ارتطام.

***

كم من مواقف حملناها ما لا تحتمل حين اكتفينا بمشهدها الصوري وارتحلنا عنها غاضبين، كم من علاقة بترت حين لم يجد الكلام مجراه الصائب إليها؟!

***

كتمان أحدهم الرد عليك ليس بالضرورة عجزا أو أن فكرتك هي المقنعة، فلا تبتسم لشعورك المغرور ذاك كثيرا. أحيانا، وبالقدر الذي تكون فيه الفكرة المعلنة أمامنا مشوهة وخاطئة المداخل، يصبح التجاوب معها محض عبث.

***

نصمت. حين تتجاوز المفاجأة قدرة استيعابنا، وكيف أن بعضهم وقحون.. وقحون لدرجة يحار الوصف فيها كيف يفيهم الوصف .

***

فإذا ما رأيتهم قد التفوا بسارق الأضواء منبهرين بالحديث إليه، كنت ألتفت إلى ذلك الوحيد في عزلته ممن يراقب المشهد بهدوء صامت.. أفكر باهتمام في الكلام القابع خلف لسانه... ما قد يكون؟ للصمت هيبة.

صوت

قال لي معلمي ناصحا: فكري جيدا قبل أن تتكلمي.
لعله لم يدرك؛ كما لم أفعل أنا لزمن طويل ومتأخر أن تركيبته غير تركيبتي،
أن تركيبة المرأة تفرض عليها التفكير بصوت عال.
- ثم ماذا؟
لعلي أخبره اليوم أني كدت أفقد صوتي دون أن أصل إلى شيء ذي مغزى..
محض تخبط !

***

ثمة ما يجب أن نعبر عنه بالتصريح..
وثمة ما يتطلب التلميح لا التصريح..
وثمة ما يجب أن يدفن في قاع الروح فلا يسمع له همس أو صدى.

***

قد يتكلم شخصان مختلفان بنفس الكلام من حيث المعنى والصياغة، إلا أنّ مجرى الحديث في نفوس الآخرين يختلف من حيث تفاعلاته، فلتاريخ الشخص الملقي، وأفكاره المجملة، وطريقته في الحياة تأثير خاص في تأدية المعاني.

***

الإكثار من المزاح الكاذب على الأغلب سيقود الآخرين في يوم من الأيام إلى عدم تصديق جديتك الصادقة، والورطة كل الورطة أن يكون في صدقك حاجة مستعجلة.

***

أحيانا.. كلمة.
كلمة واحدة من شأنها أن تدمر نفسيتك بالكامل.

***

طامة البعض أنهم يعتبرون قسوة كلماتهم وجرأتها المتمادية فعل "لازم" وشجاعة استطاعوا بها أن يقولوا ما عجز عن قوله الجبناء، لكنهم يغفلون حقيقة أنه ثمة يد خفية ترفع دعاءها الساخن والمدمر لله.

صورة أخرى

أتدري ما المضحك في الأمر؟

أن لا شكل ثابت لنا، ولا إطار محدد... كل واحد منهم يرسمك بطريقة مغايرة.

***

هم يرون فينا ما لا نراه في أنفسنا، ونرى نحن في أنفسنا ما لا يرونه فينا، وبعيدا عن أي انتقاص.. لا أحد يعرف أحدا، لا أحد يعرف نفسه.

عالم وردي

لا أدري كيف يمكن للنسوة أن يملكن هذا القدر من القدرة، القدرة على الثرثرة واجترار الكلام ذاته، الحديث عن الأسعار، والموديلات، وأخبار الموضة، وصنوف الطعام، وأكل لحم زوجة الابن، وأم الزوج، والقريبة المنبوذة، وزوجها الإمعة، دون أن يعلق فيهم قول قائل: ألا تبدو الحياة تافهة بهذا النمط المكرر؟ ما لذة الفائدة حين تستولي هكذا أشياء على اهتمام المرء فيدور معها حيثما دارت، دون أن يسأل نفسه: هل هذا منتهى ما في الوجود؟

إنها أشياء مهينة.. مهينة لشرف العقل ومرتبة الإنسان.

***

الزوجة التي لا تنفك تحمل هاتفها، لتتصل بوالدتها وتنقل إليها تقاريرها اليومية عن الذي يجري في بيتها، تحتاج وبحزم إلى شد من الأذنين.

***

لقد حصل وأن رأيت الكثير من النزاعات بين النساء.. نزاعات كانت تصل إلى شد الشعر، والركل، والضرب بالأحذية، والأواني، والكراسي.
وفي كل مرة كنت أرى فيها ذلك، كنت أتساءل عن اللطف كيف نسب إلى هذا الجنس اللطيف؟!

***

في ذلك الجزء الخاص من عالم المرأة، إنهن لا يكففن عن تباهي العدد أمام بعضهن البعض ليمارسن لغة الترفع، والانتصار، والإغاظة:
-خطبني غ فلان وفلان وما قبلتش!

***

الخنق، والحبس، والاستقواء التربوي... تلكم أشياء لا تفضي غالبا إلا إلى عكس الغاية. المرأة يا عزيزي إذا أرادت فعل شيء، ستفعله ولو من ثقب باب مغلق.

***

في كل مرة أرى فيها أنثى متأنقة تتقصد الوقوف أمام لمة من الذكران لتفتعل بعضا من تلك الحركات السخيفة فتتفاعل معها عيونهم وألسنتهم بعبارات "الاشتهاء"، أتخيلها فجأة كمخروط آيسكريم يلحسه صاحبه من كل الجوانب، ومن ثمّ يقدمه إليك... بآثار لعابه، بقرفه المثير للاشمئزاز.

***

ما شكل هذه العلاقة التي تقوم على جملة " اختاري من يعتذر لك حتى ولو كنت مخطئة" -وإن كانت مجرد كتابة بياعة للوهم-؟

ما نوع هذه المشاعر التي تقوم على الأنانية وسحق الآخر؟

ما قيمته... ذلك الحب الذي يجعلنا نلغي ذواتنا؟

***

خطبها.. رفضت.

تزوج، تزوجت.

طلق زوجته، توفي زوجها.

ارتبطا بعد عشر سنوات.

ذنب

في اللحظة التي تجد فيها نفسك تحاول أن تبرر لك أخطاءك وتجاوزاتك لتحدثك قائلة: ماذا فعلت أنا مما فعله الناس؟ وبخها.. وبخها كثيرا على ذلك، واجعلها تفهم بأنك غير الناس، وأننا _غدا_ لن نحاسب على أعمالنا في جماعة.

***

صاحب الأربعين الذي يبرر أخطاء العشرين ب"الصغر"، وقلة الوعي، ونقص الفهم، يجعلني أفكر في صاحب العشرين الذي مات أمسا... ما الحجة وقد توقف به الطريق عن التدارك؟ هل الصغر مبرر؟

***

ويطلع عليك من يهتف بذنبه صادحا:

- على الأقل أنا خارجها Taille Taille.

وكأن "الطاي طاي" فضيلة في ميزان الأخلاق تستحق الإشادة.

ألا فلتنقرضوا.

***

ثمة أخطاء لا تنمحي آثارها من حياتنا بإقلاع أو توبة، وسنظل ندفع ضريبة الانزلاق فيها إلى آخر لحظة من أعمارنا.

***

في طريق التوبة.. سيذكرونك بما كنت عليه، سيعايرونك بين الفينة والأخرى بماضيك الفاسد، وسيرفض بعضهم حقيقة أنك تغيرَّت للأفضل.

***

قبل أن تلوم حظك العاثر، وانتكاساتك المتكررة، فتش جيدا عن المعصية التي تحول بينك وبين حسن توفيقك.

حبر وورق

كونك كاتب: يعني أنك شخص بائس، ستحيا وتموت وأنت تنقب عن الأشياء والمعاني اللا ظاهرة، يعني أنك لا تأخذ الأمور ببساطتها وبسطحيتها، يعني أن الحياة ستفوتك في محطات كثيرة وأنت تحاول أن تُخرس صوت " النحلة" في رأسك.

***

- أحتاج إلى أن أبقى يقظا، يقظا جدا، غيبوبة الوعي باتت تشي بنا.

- لا تريد أن تنام.

- لا.. لا أريد أن أكتب، الكتابة صوت اللاوعي فينا، الكتابة اعتراف عن الذي يجري في الداخل، وبعض الاعترافات تنطلق من مهمل مضمر، لتصبح كل شيء لاحقا.

-ممّا تخاف؟

-أخاف... أخاف أن أعترف وأن أصدق اعترافي.

***

قال الكاتب في روايته أن الحياة ليست كما تصورها الروايات دائما من نهايات سعيدة، ولقاء البعيدين، وتحقق الأحلام، وما كان منه إلا أن أقام المآتم، وشيد الأحزان، ومزج الأوجاع.. وكأنما يريد أن يقول للقارئ: كفى وهما، وتقبّل واقعك بما فيه.

ولعل أفضل ما قيل في هذا الباب: " يحاول دعاة الحقيقة في كل حين أن يكافحوا الأوهام بين الناس، وما دروا أن الوهم ربما كان أنفع من الحقيقة أحيانا. فلو أن الإنسان عاش على الحقيقة وحدها لفني منذ زمان بعيد" علي الوردي.

***

السيء في الروايات والخواطر العاطفية بشكل عام أنها تجعل القارئ يسقط الكثير من التعبيرات على حياته وحوادثه، فيتذكر حزنه، وخيباته، وانكساراته بتأثر شديد باحثا في سطور الكاتب عن عزائه لنفسه أو عن انتقامه اللفظي، والشعوري من الطرف الآخر . الطرف المحرم غالبا في عرف العلاقات المشروعة، والذي لا تتعرض فيه الرواية إلى المرجعية الدينية كما يتطلبها الحال.. فنكتفي بلوم الآخر، ومعاتبته، وضخ شعور المعاناة فينا، دون أن نلوم أخلاقنا، ومبادئنا. وتربيتنا، وتديننا !

لحظات

اللحظة المأزق. تلك اللحظة التي تجد فيها نفسك قد اجتازت شوطا كبيرا، وفي الوقت ذاته غير قادرة على إتمام بقية المسار: إما لإعياء أو ملل أو ندم. تتأرجح بك رغبتك المتضاربة فتعلق.. تعلق بين خيار الانسحاب أو المواصلة.

***

تشتد سرعة التيار في مرحلة ما من الحياة، تشعر أن الحوادث تتخيرك بقصد لتحيلك إلى شخص يشبهك غير أنه ليس أنت.

***

..... ثمَّ ترمي بكل الاحتمالات خلفك، تتقوى على مخاوفك وتخيلاتك في خوض خطوتك الفارقة. وبنبرة من اللا مبالاة تتمتم: (فليحدث ما سيحدث).

وتندفع إلى الأمام.

***

عندما نتعرّض إلى شيء من أشيائنا الماضية أو نلتقي شخصا جمعتنا به مرحلة سابقة، يظهر شخص آخر فينا، يركن نفسه إلى زاوية قصية ليعبُر بنا مسافة السنوات الفائتة. غالبا هو سيقول:

- إيه... كيف كنُّا، وكيف صرنا!

تسليم

الهاتف الذي انطفأ فجأة وضيّع عليك اتصالا هاما منتظرا..
فارق الدقيقة الذي أخرك عن ركوب القطار، واضطرارك لانتظار آخر طويل..
السيارة التي تعطلت فجأة وأنت في طريقك إلى مسابقة عمل استثنائي..

هذا الانقطاع المفاجئ للحبل، فيه خفايا وخبايا يسوق الله لنا خيرها من حيث لا ندري، فإما رفع ضر أو تهيئة لفرصة أفضل، فلتتجمل الألسن بالحمد والصبر ولتكف عن لعن حظها من العطايا.

نصح

هم لا ينفكون عن تقديم نصيحتهم المحنطة القائلة بـ : "لا شيء يستحق أن تحزن لأجله"، في حين أن الجميع يمارس تدفق مآسيه في لحظات ما. إن محاولة بث خلاصاتنا الحياتية والإفادة بها حين يتعلق الأمر بالشعور محض هراء.

***

وقد صار الرجل كامرأته، يفتتح أي صفحة من تلك الصفحات الفايسبوكية التي نصّبت من اسمها منبرا لتلقّي قصص الناس ومشاكلهم، فيكتب عن مشكلته وحيرته طالبا من متابعي الصفحة نصحه وإرشاده - بما فيها من فوارق عمرية، وفكرية، وخلقية- ، فكيف لا تُهَدُّ البيوت، ولا تُبتر العلاقات، ولا تتغلغل الوساوس والشكوك بين الروابط؟

ما كل الناس أهل لتقديم النصيحة...

ما كل الناس أهل لتقديم النصيحة...

اسم لامع

يتمنى أحدنا أن يكون مؤثرا بشكل ما وأن يبلغ تأثيره قدرا كبيرا من الناس، ويسعى إلى أن يدوي اسمه في كل الاتجاهات، وما يدري أن الشهرة قيد خانق يقتات على حرية المرء وعفوية أقواله وتصرفاته، وأن السعداء كل السعداء من عاشوا في الخفاء يتزودون لأنفسهم هدوء الحياة دون أن يشير إليهم أحد.

***

"أمنيتي في الحياة أن أكون مشهورة".

هكذا قالت لي قبل سنوات، وكنت، وإلى زمن قريب أراها تبعثر جهدها متنقلة من شيء لآخر دون أن يكون بين هذه الأشياء ترابط أو مغزى مشترك، وفيهم من فيهم من يصفق لها مادحا بقوله: أنت رائعة، أنت متعددة المواهب. لقد أخبرتني قبل أيام بأنها تشعر بالسأم وعدم الرضى، وكانت هذه النتيجة ضريبة حتمية لتشتت الذات وفقدان قيمتها الجوهرية في مسيرة البحث عن مسرح الأضواء.

***

يكدح البعض على مدار فترات طويلة باذلين ما فوقهم وما تحتهم دون أن يعطوا جزاء منصفا، ويظهر بعضهم في المحطة الأخيرة فلا يبذلون من العمل إلا كمن يُعد واجهة بحث أعدّه غيره، فيرتفع شأنهم، ويعلا ذكرهم، ويحصدون اللقب والشهرة.

***

وقد يسعد أحدنا بنزول اسمه في جريدة ما، ويفخر ويباهي ، أفيسره بعد ذاك أن تدعس صورته ماسحة فضلة قيء أو ضباب زجاجة؟

اختلاف

يقولون اسأل مجرب ولا تسأل طبيب، إلا أن خلاصة التجربة الواحدة ستختلف من مجرب لآخر، سيخبرك أحدهم أن الأمر عادي، وسيخبرك الآخر بأنه سيء، وسيقول آخر بأنه جيد، وذلك لأن معطياتنا، ونظراتنا، وقابليتنا على التكيف مع الأمر الواحد مختلفة، وقد يبدو من الغباء ما يكفي أن نخوض أو نمانع تجربة ما، بناء على أحكام الآخرين المطلقة.

***

مختلفون نحن في تقديراتنا وتبنياتنا للأمور مهما أبدينا من اتفاق في الشعور أو الرؤية ، ستخبرني مثلا أنك تحب الهدوء كثيرا، سأخبرك أني كذلك: أحبه، وفي أول رحلة تجمعنا قد أهمس لنفسي قائلا: أنت مزعج جدا!

***

تعبيرات خدعة الرحيل والهجر والعتاب.. خطابات من طرف واحد.. من منظور واحد.. ومن نفسية واحدة، يمارس فيها كتابها غالبا لغة المهزومين والضحايا.. لتأتي ردود القراء الروتينية مواسية أو مواكبة لذات اللحن، داكة الطرف الآخر في حيز الاتهام.

وبعد:

- فالقرارات والنتائج وليدة أسباب، والأسباب مختلفة المنشأ، واللا شيء في مفهومك قد يكون شيئا قاعديا في رؤيتي.

بشر

مهما أرتك الحياة من طباع البشر وصنوف تصرفاتهم الغريبة وقلت: "لا فعل يتعدى هذا الفعل"، سيأتي عليك دائما من يجعلك تحمل عقلك على كفك من فرط الدهشة.

***

أولئك الذين نشغل تفكيرنا بهم وبما سيقولونه عنا أو كيف سينظرون إلينا، هم في الأصل -وإن فعلوا-، فتركيزهم علينا غالبا عابر لا يتجاوز قدر اِلتفاتة. قصصنا وأشياؤنا الخاصة ليست محورا رئيسيا في اهتماماتهم، الكل غارق في تفاصيله الذاتية.

***

كلما التففنا حولها على مائدة الطعام، راحت تقشر تفاحتها، تشقها إلى نصفين، تطالع سوادها المستتر تحت خضرتها الأخاذة وتقول: "هكذا هم بعض البشر من الداخل."

نهاية

فجأة تغدو التفاصيل اللا مهمة حدثا مهما، وحركات الرجل.. تصرفاته.. همساته الأخيرة.. تخرج للعالم كقصة مؤثرة تسترعي اهتمام الحاضرين في وفاته .

***

أن تنتهي في يوم ما كأنك لم تكن، أن لا تستيقظ صباحا لتباشر مهامك المعتادة ولا أن تلتقي أصدقاءك المقربين، أن تكون لوحدك.. وحدك فقط وبأتم ما تحمله الكلمة من معنى، أن تسكن التراب الذي تدعسه الآن بقدميك... في مكان ضيق، وسط الظلمة، وأنت لا تعلم ما ينتظرك من مصير فيم بعد.. أمر مخيف.. مخيف جدا!

***

إنها لحقيقة فظيعة تلك التي تقول بأن وجودي سينعدم في يوم من الأيام لتستمر عجلة الحياة كأن لم أكن، بل إنه لشيء فظيع أن أولئك المعزين سيحضرون وفاتي ليقصوا على بعضهم البعض مستجدات حياتهم وحوادثها ثم يسيرون إلى شؤونهم وهم يثنون لذة الطعام أو يذمون ملوحته، والأفظع من كل هذا وذاك أن أولادي الذين أفنيت عمري في رعايتهم والسهر عليهم قد يتخاصمون بعد شهر واحد على مورثاتي.

إنها لأشياء فظيعة حقا، وعزائي إنّما في حياة ما بعد الحياة.

انزلاق

واليوم، تأتي الملامة أو الانتقاد أو النصيحة فلا نسمع من بعدها إلا قول أحدهم: حياتي وأنا حر فيها. ورغم أن الحرية حق خاص، رغم أن الشاب الذي بنى عش طير فوق رأسه كان حرا، رغم أن الرجل الذي أقام مسابقة أجمل معزاة كان حرا، رغم أن الأم التي أقامت عرس احتفال ممتد ومنوع لمجرد أن طفلتها أبانت أسنانها الأولى كانت حرة، حرة في مالها، ودوافعها، وأفكارها، إلا أننا بذلك أسسنا لمجتمع عشوائي، مثله كمثل طفل بالغ يتلهى في مصاصة فارغة. مجتمع واهن جدا، تافه جدا، ومنحط في اهتماماته.

-أفلا تستحق هذه الحرية شد شعر وسوط عقاب؟

فساد

وأنت تحدثني عن فساد رجال السياسة وتعدي الكبار، حدثني أيضا عن اجتيازك لطوابير الانتظار بدون حق، حدثني عن سرقتك لأنترنت الجار دون علمه، حدثني عن رمي قمامتك من طابقك السابع، حدثني عن بيعك المغشوش لزبائنك، وتعليمك المغشوش لتلامذتك، وتطبيبك المغشوش لمرضاك، حدثني عنك دون تجميل أو تحسين أو إضافة. أغلبكم دكتاتوريون، ومفسدون، وسارقون، وظلمة لمن هم أسفل منكم. فحق على العدل أن يجازيكم بمن هو منكم وفيكم.

قضية مراتب وفرص ... لا غير!

***

كآلات مبرمجة لم تخلق إلا لفغر أفواهها، يتلبسون ثقافتهم المثقوبة، ويتداعون عند أول نداء للانبهار والتصفيق.

***

تستطيع أي سلطة أن تفوز بظاهر التغيير المطيع، لكن النبتة المستورة في الداخل، الفكرة النامية في الرؤوس لا تستعمر ولا تغير بقوة.

علاقات

استوقفني اسمها مطولا على قائمة أصدقاء الهاتف، مرّت مدة طويلة دون صوت أحدنا، كنتُ على وشَكِ الضّغط على زر الاتصال حِينَ ارتفع صوت بداخلي يقول: ولمَ لا تتصل هي؟!

***

حتى تلك الأخطاء الشنيعة التي لا تغتفر، فإن لها أسبابها وأعذارها، بيد أن إعطاء الحق لهذه الأسباب سيجعل الأوضاع تزداد عوجا لاحقا. أحيانا.. لا يجب أن نغمض العين حتى عن الهفوات -مهما حقر حجمها- لأنها وذات تكرار ستقود إلى نهايات متمادية السوء.

***

حين تنتحر الثقة ويستولي الشك علينا، فإن كل فعل.. كل همسة تؤوَّل إلى غير معناها.

***

كم من نية حسنة تلبست الفعل الخطأ، وكم من خطأ أحدث للآخرين ضررا، وتعديا، وأذى .
إن الأفعال المضرة لا تبررها النوايا الحسنة في منطق البشر.. أنتم يا من تعلقون الشماعة على قلوبكم البيضاء وهمسها الخفي.

***

إياك أن تزيد من شحنة الشاكي إن شكى لك خصومته مع صاحبه، أو أن تذكّره بعيوب صديقه ومساوئ مواقفه معك، ستصفى بينهما الأمور، وسيكون الربح المشوه من نصيبك وحدك.

***

فلتأخذ الأمور موضعها بالمواجهة وكشف الحقائق، أن نخسر ما نخاف خسارته أفضل بكثير من أن نمتلكه بهروب هالك في الترقب، والتوجس، والاحتمالات.

***

سيطلب الطفل من أمه كأس ماء، فترفض بحجة أو بأخرى أن تقوم من مقعدها، طالبة إليه أن يحضره بنفسه. يغضب الولد ثم سرعان ما يتجاوز الأمر وتطوى القصة دون مخلفات.

وسيطلب طفل آخر من زوجة أبيه كأس ماء، وقد ترفض، فتأمره بما أمرت به الأم الأولى طفلها، فيغضب، ويتضخم الموقف في نفسه، وتترسب بداخله مشاعر، وأفكار، وتفاعلات.

-باختصار في الحياة علاقات ضاربة في الحساسية، مهما غاصت في العمق، والحسن، والود، تأتي عليها مواقف، تجرها جرا إلى بناء حواجزها الداخلية.

***

عندما تستعير مني شيئا، فأكون أنا من يقصدك لاسترجاعه -بعد حاجة وطول انتظار-، لا داعي أن تواري حرجك بكذبة مفضوحة فتقول: للتو كنت أفكر في إعادته لك.

***

ما الجدوى من أن يفتخر الأب بابنه أمام الآخرين في الوقت الذي لم يسمع فيه الولد من أبيه جملة ثناء أو مدح واحدة؟ أو أن يثني الزوج على صنيع زوجته أمام غيرها دون أن يهبها اعترافا واحدا مباشرا؟
ما قيمة تصفيقات الظهر حين تتيبَّسُ الشفاه أمامنا؟

***

أن يكون لديك كائن ضعيف عليك أن تلبي كافة احتياجاته، كائن متمرد ينهكك بتصرفاته الطائشة، طفل مُلّح لا يخرس قط إن لم يحقق مطلبه ويؤدي رغباته.. فذاك شيء ينخر العظام، ويعقد الأعصاب، ويغلي فيك الدم أحيانا، ولولا رحمة العاطفة واسفنجة القلب لحدثت أشياء سيئة جدا في الأمهات.

***

وإحدى المغالطات، تلك القناعة التي تقول: "أعاملك كما تعاملني، فإذا وجدتني لست كما تتمنى، فأنت لست كما ظننت" ويعتقد المؤمن بهذا القول أنه أرفع خلقا وأذكى منطقا، إلا أن الانسان في الأصل لا يبدي إلا ما يضمره

في سره حتى وإن أقنع نفسه بأنه ليس كذلك، فإن أنت أبديت قلة الأدب، والفاحش من الكلام كرد على قليل الأدب فأنت قليل أدب والسلام.

***

عندما يستفزك أحدهم أو يحاول الانتقاص منك فهو غالبا ينتظر ردة فعلك الثائرة ليحقق في نفسه شعورا بالاستمتاع المنتصر، وكأن لسان حاله يقول: لأرى ما هو فاعل؟ لذلك اجتهد في توفير طاقتك لنفسك وخذ به إلى النهاية غير المتوقعة، فإن قال لك: أنت شخص أحمق، قل له: أنا كذلك فعلا، واقرأ الخيبة في عينيه.

***

الرجل الذي آذى الكثيرين بشره وتعدياته، كان له طفل يرتمي بين أحضانه في كل مساء قائلا: أبي الحنون.

والحاصل أن للظالم قلب يبذل الحب، والعطف، والحنان داخل دائرته الصغيرة، قلب يخاف على طفله ألم شوكة في الوقت الذي لم يرحم فيه غيره، فلا يكذب بعد ذاك من قال: "قلبي طيب" وإن لم يكن في أفعاله ما يوحي بذلك: "الأشرار طيبون أيضا."

سلوك

الفرد الذي نشأ في بيئة عابسة، عنيفة، خشنة المنطق واللسان ليجد الغرابة وعدم القدرة على تبني الأشياء التي من شأنها أن تعاكس طبيعة هذه الأمور. ولعله حدث معي ومعك أن استغربنا سلوكيات معينة من البعض رغم خوضهم في دروب العلم والمعرفة والتثقف، وما فتئنا أن قلنا: كيف يتصرف على هذا النحو، أو يأتي بمثل هذا القول، وهو يحمل بين جنباته هذا القدر من الثقافة والمعرفة؟ والحاصل أن السلوك أعمق من المعرفة ذاتها، وأن الأخلاق في عمومها هي النتيجة المباشرة للتربية وللبيئة التي يحتك فيها الإنسان بغيره قبل أن تكون لثقافته المكتسبة.

يقول أبي عبد الرحمن رحمه الله في هذا السياق: " الثقافة والشهادة لا تصنعان سلوكا، فلقد عاشرنا في الريف رجالا لا يكتبون ولا يقرؤون، لكنهم يحسنون التصرف مع الغير لأن شيوخ التربية كانوا يحرصون على بث حسن التعامل قبل صنع الأقوال."

قلب أبيض !

أولئك الذين يفسرون ظاهر الأشياء بضدها ويقولون أنه ليس ثمة أنظف من قلب الشخص العصبي، ذلك أنه _ وعلى حسبهم_ يلفظ كل ما اعتمل بفؤاده علانية، فلا يُخبّئ لك خبثا محتجبا.

أنا يا أنت لا علاقة لي بنظافة قلبك من وساخته، ولا بنيته الطيبة من الشريرة، فالعلاقة بين البشر بظواهر أخلاقها في التعامل لا بخفايا القلوب. ثم ما الذي من شأني أن أبرره لشخص قد يؤذيني في جسدي أو شعوري جراء نوبة غضب؟

-قلبه نظيف!

هذه نكتة مضحكة فعلا.

بعض أشياء

هناك أشياء بسيطة.. رخيصة... أو قديمة حتى، لا نقبل أن تستبدل بأشياء أخرى أحدث، وأغلى، وأجمل، لأنّ القيمة المحسوسة أثمن في ميزان القلب.

***

بعض الأمل ضار، ضار حين يفتح للعقل بوابة من الاحتمالات المتفائلة.. تلك التي تقتات على وقتنا، وأفكارنا، وتقف حائلا بيننا وبين خطواتنا البديلة، لنكتشف لاحقا هوة المسافة بين نقطة الأمل المتوهم وحقيقة الحياة الفعلية.

***

ليس سيئا أن تكون فاقدا للشيء فلا تعطيه، ولا أن لا تعطيه حين أدركت معنى فقدانه. السيء والحرمان الحقيقي أن تعطي للآخرين ما ملكته، أن تفيدهم بما لديك، وتعجز عن إفادة نفسك به.

***

والشيء كلما كثر فيه الاهتمام بتفاصيله الجانبية، ضاعت منه غايته الأصلية وغدا محض مظهر خاو.

***

في عالم السياقة، يحدث كثيرا أن يكون السائق في السيارة المجاورة "حمارا"!

***

ما إن يقطف أحدهم ثمرة نجاحه حتى يبدأ بتتبيل كلامه بمعاني الإرادة وتلك القوة الداخلية التي جعلته يتخطى كل المطبات التي اعترضت طريقه ليرسو على ما هو عليه اليوم من مكانة، وكأنه بذلك يحاول أن يضيف مجدا إلى مجده... فتسمعه يردد: لا شيء مستحيل... يجب أن تكون صاحب إرادة قوية فقط.

والأصل أن هذه الإرادة محض غطاء نواري به كثير حقائق ومعطيات، ثمة دائما ظروف محيطة مباشرة أو غير مباشرة هي التي تشارك في رسم وإتمام مساراتنا الحياتية.

***

نتعلق أحيانا بالصدف، نبني عليها آمالا وقصصا واستنتاجات، نعتبرها كإشارات طريق لشعور القلب، نتبعها إذ تخفف علينا عناء التفكير والحيرة، وحين نصل إلى الدرب المسدود، نتساءل:

-ما كان سر الصدف؟ أكانت صدفا بريئة فعلا أم ثمة افتعال كاذب خفي فينا؟

***

أحيانا وبالقدر الذي نحتاطه، يكون وقوعنا عنيفا.

***

تتصل بأحدهم بعد غياب، فيكون أول ما يسمعك إياه:

-حمار مات، كيف خطرنا ببالك؟!

سؤال جدِّي:

-هل وحدها مدينتنا من تعاني فائضا في الحمير؟ أم أن حمير مدينتكم انقرضوا؟!

***

يموت جمال بعض المعاني بالإفصاح.

***

بعض الأسئلة أو الإشارات العابرة وإن لم تكن مقصودة، وإن كانت بريئة فهي كفيلة بأن تلحق الضرر بمشاعرنا.
لا أحد.. لا أحد في النهاية يستطيع أن يخترق روحك ليتلصّص على جراحها وأمراضها الدفينة، لكن حين يكون هذا المرض أو هذه العاهة مرئية للآخرين، تطالعها العيون لتبدي إيحاءاتها المتأثرة، أو المشفقة، أو المشمئزة حتى، ستتحسس أكثر وأكثر، منها ومنهم.

***

في عيادة الطبيب، ستجد طبيبا في غرفة، وعشرة أطباء في غرفة أخرى ينتظرون أدوارهم.

***

أترى لو أن الطبيب سَلَّم عاطفته لأنين مريضه أثناء حصة علاجه.. أكان ليقوى على مداواته؟ كلا. كذلك نحن، نحتاج إلى الكثير من الحزم في بعض محطات حياتنا، نحتاج إلى أن نتحامل على أنفسنا، واحساسنا، وشعورنا، نحتاج إلى أن نُسكِتَ صوت القلب فينا لنداوي جرح الروح.

***

واحذر صديقي، إذ لا يتمثل الخداع في الكذب فحسب، فبعضهم بارع جدا في الاحتيال عليك دون أي اختلاق أو إضافة، يسرد عليك جزيئات من الحقيقة، يتقصد تجاوز بعض الأحداث والروابط التي من شأنها أن تغيرِّ من رؤاك للوضع أو الموضوع تماما.. تاركا لك بذلك مهمة ملء الفراغ بما يمليه عليك استدراجه لك.

***

الأشياء التي تعرض نفسها علينا بإلحاح، غالبا ما تفقد قيمتها بأعيننا.

بين النقد اللاذع وإبداء حمية الإصرار على المواصلة والاستمرار. ألا يمكن للحياة أن تضيع منا سدى في أرض بور؟ كيف لصوتنا الداخلي أن يكتشف أهليته من عدمها في الوقت المناسب فيتدارك ما يمكن تداركه؟
ولا تحدّثني عن شرف المحاولة، فالندم والخسارة جلاد.

***

وقد يتصيدونك في أي لحظة ليمسحوا بكرامتك الأرض.. وتخاف، وترتجف، وترتعب.. في حين أن آلاف النظرات تتابعك بضحكة حينا وبشفقة حينا آخر، وحتى اذا ما اشتد المشهد وحمي الموقف، ظهروا لك بتصفيقاتهم صادحين:
- كاميرا خفية.
حينها يا أنت، عليك أن تبدي ضحكتك الجميلة وابتسامة تليق بظهورك على التلفاز.

***

أن أكرهك يعني أنك مازلت تنتصفني كغصة تحيطها مشاعري المظلمة، أن تسقط من قلبي يعني أنني قد تجاوزت الشعور إلى اللاشعور.

***

أيطلب المرء المستحيل حين لا يبتغي من العالم سوى أن يدعه وشأنه.. أن يتلهى بعيدا عنه؟

***

يبالغ بعضهم في تقدير جهودهم وأعمالهم العادية والبسيطة، بل والواجبة عليهم أحيانا، فإن كنت أمامهم صاحب حق، خُيِّل إليك أنهم أصحاب الفضل وأنك المتسول.

***

وإن لم يكن لك شيء فألّف أي شيء ليكون سرّك الغامض، ضخِّمه جيدا فيك، وإياك أن تخبر به أحدا. إننا يا صديقي نتضاءل في العيون حين نكون مكشوفي السرائر.

***

مُهمّة البعض في هذه الحياة: أن يملؤوا أحذيتنا بالحجارة.

***

الخدعة العاطفية أن يحب المحبوب حب المحب له لا المحب نفسه.

***

الأشياء التي تولد كبيرة تصغر..
الأشياء التي تولد صغيرة تكبر ثم تصغر.

***

الوساوس... أفكار نزرعها بأنفسنا ونسقيها بماء القلق، فنصبح كمن كذب الكذبة ثم صدّقها.

***

أشد الخيبات طعنا أن تنتظر ما لا ينوي المجيء إليك... أن تستنزف وقتك وتفكيرك في تفاصيل اللقاء... في تفاصيل العناق، ثم تكتشف أنك محض "هامش" لم يذكر.

***

وبعد العاصفة، يخيّم سكون آخر، هدوء يختلف عن الذي كان قبلها، صمت موحش يفضح خراب الأشياء، تعبها، إعياءها.. وانهداد الروح فيها.

***

الفقر، المرض، الصفعات، المطبات الحياتية... أشياء محزنة ومؤلمة جدا، لكن أصعب ما يقاسيه المرء في كل ذلك أن يسند ظهره في المساء إلى جدار غرفة باردة بدلا من حضن أسرة دافئة تقاسمه همومه باهتمام.

***

قد لا نعي كثير مجريات تشهدها عيوننا في مرحلة الطفولة، لا نعيها آنيا، لا ندرك أسرارها ودواعيها في ذلك الوقت، في حين أن هذه الذاكرة تُرسب فينا كل ذلك على هيأة مشاعر، أفكار، دوافع، أحكام، أو حتى عُقد وتثبيطات.

***

يقتل التكرار روح الأشياء بدواخلنا..

***

جميل أن تحتفظ بعض المشاعر/ المظاهر بشيء من الخصوصية والسرية، فالعين رصاصة والحساد العطشى كثر.

***

وجلسنا إلى بعضنا بعد سنوات من البعد والغياب، فلم نقل شيئا.
وكأننا لم نلتق قبلا...
وكأننا لم نعرف بعضا...
لقد قتل الوقت فينا كثير أشياء.

***

مشكلة العالم الافتراضي أنه عالم مبتور الجذور... يجعلنا نتناقش ونتعاطف مع أفكار قد تكون مواقفها الخلفية أشياء مرفوضة تماما في قناعتنا، فبإمكان أحد أولئك ال " مثقفين" أن يكتب إلينا مثلا : "أرغب في مكان لا يصله أحد من البشر... أنا، وكتابي، وقهوتي وفقط"، فيدعمه بالموافقة الكثير منا، في حين أننا لو بحثنا في داعي كتابة هذا السطر لوجدنا أن أحدا من أهله أو أصدقائه طلبه في مساعدة أو عون فنال منه ذلك من التأفف ما نال.

***

ولعل هذه الأحداث العادية التي تمر بنا اليوم فلا نستقبلها إلا بشعور الملل واللا تفاعل هي للغد ذكريات مميزة نتمنى كثيرا لو أنها تعود إلينا من جديد.

***

العلاقة التي يتذبذب فيها التقدير والاحترام وتتغطى تحت لحاف الحب هي محض بالون منفوخ، فلتعجل بتفجيره بنفسك ولا تستنزف مشاعرك هباء، عجل يا صديقي.. فأن تموت وحيدا وبكرامة أهون ألف مرة من أن تموت وسطهم بمهانة.

***

حسب المرء أن يظن بالأمر خيرا مادام ظاهره كذلك. التذاكي، والتأويل، والتحليل، وكثرة الفلسفة، أشياء تقتل هناء المرء واستقراره، وقد تزج به إلى ما لا تحمد نهايته.

***

أكبر إهانة يرتكبها المرء في حق نفسه أن يستعير مظاهر شخصية غيره وينطوي تحت ملامحها حاصرا ذاته في زاوية العدم.
إن المقلد ومهما كان بارعا في تقليد غيره سيبقى اسمه "مقلدا" .. ذلك أنه لم يقدم للعالم جديدا يستحق الاحتفاء، وأولى لمن لن يعيش غير حياة واحدة

أن يستغل خامته الخاصة بالصقل، والتهذيب، والتطوير، ليصنع لنفسه بصمة لا تشبه غيرها.

***

الحكاية مزدوجة الأبطال والمعادلة متكافئة الأطراف وكل قصة انحطاط تقع فيه فتاة يشاركها فيه إلزاما رجل منحط، وبقدر عدد المقرفات ثمة نتنون يقابلونهم بالضرورة.
والحكم الله.

***

ما كنا نخشى ضياعه منا ضاع فعلا... واستمرت الحياة من بعده على أي حال، حلمنا مجددا، خضنا دروبا جديدة، ابتهجنا، بكينا، صفقنا، انهزمنا، سقطنا، انتصبنا.. ورغم نبضات قلوبنا المعطوبة، رغم وخز الذاكرة أحيانا، كان ولابد من أن لا نتوقف.

***

عندما تصاب منك صحتك، تتضاءل أمامك كل الأشياء، كلها... كلها، تتثاقل حركة الحياة في عينك، وتختزل جل أحلامك في: أريد أن أتجاوز هذا، أريد أن أشفى فقط.

***

أحاديث الناس الروتينية، ذات الحكايا، ذات الشكاوي، ذات الأخبار المملة.
هل هذا منتهى ما في الحياة؟ أليس ثمة شيء فريد؟

***

بعض الحقائق مؤذية... مؤذية في التعرجات الاضطرارية التي تجبرنا على خوضها والالتزام بها فيم تبقى.

***

الوجع : أن يذبل أحدهم أمامك... أن يتآكل... أن يتألم بصمت، أن يهز الطبيب رأسه بأسف مختزلا أشياء كثيرة... كلاما طويلا.
أن ترى كل ذلك بعينيك، ولا تستطيع فعل شيء.

***

هي يائسة وتشعر بالكآبة ولا ينفك صوتها عن ممارسة العويل اتجاه الكثير من الأمور في حياتها، وأغلب الظن أنها بحاجة إلى صفعة حقيقية... صفعة قوية وصارمة وعنيفة، تحط من قدر كل الأشياء السابقة، وتعلمها المعنى الحقيقي للألم، لتسُد فمها عن فعل الشكوى والتأوه.

***

مستفز قولهم: " الجمال.. جمال الروح"
لا لشيء، إلا لهذا الجمال الظاهري الذي تكدس على قارعة الطرقات دون أن يأبهوا له!

***

أتدري ماذا يحدث حين تفقد الفتاة أباها؟
يمتدّ العراء من حولها، تشعر وكأنها تقف وسط صحراء تعصف بها الريح من كل جنب دون أن تجد شيئا آمنا متينا لتتمسك به.

مرآة

لم أكن أملك ذلك اليقين، فضلا عن عدم ثقتي بالأمر كله، كنت أقول: كيف لكلمات بسيطات يرددهنّ المرء وهو تحت لحافه أن يهوّنَّ له الصعاب كأن لم تكن. كنت أظن أنّه لا شيء بالمجان، أن الكدح وحده هو الثمن الإجباري الذي يجب أن يدفعه المرء في سبيل حياته، أنّ عملا سهلا كالدعاء لا يمكنه أن يكون بمثابة المصباح السحري الذي يقلبنا من حال إلى حال فجأة. هل أقول اليوم: كيف يفرط المرء في ثرائه ومصباحه على طرف لسانه، وسحره بين جنبيه؟

***

والآن، الآن، أريد أن أصبح اثنين. صورة واحدة بجسمين، أقف أمامي، أقربني إلي، أعانقني بشدة، أحتفي بي قائلا:

-يا لك من رائع.

***

كنت أريد الحصول على كل شيء من الشيء الذي أبتغيه، لا أرضى بأنصاف الأشياء. بعد أعوام، وأعوام، كان الخراب المحيط بي مثيرا للبؤس وللشفقة.. لم أكن قد حصلت على شيء.

***

أرى على المرآة شخصا يشبهني وأكرهه، شخصا بغيضا، تعفّنت كل ملامح الجمال فيه. إني أراها الآن دودة الوسخ الروحي وهي تكبر بداخلي لتضاعف مسافاتي.. تضاعف وهني.. تضاعف هوتي، وأنفر مني.... أغض الطرف عني:

- هذا الشخص مقرف... هذا الشخص يجب أن يموت.

***

بالله خَبّروني، كيف تنسكب معكم كلمة "أحبك" انسكاب الماء؟

كيف تكتبين لي: "يا حبيبتي"، في أول محادثة تجمعنا؟

كيف صار الحب رخيصا؟

كيف هانت المعاني؟

***

في كتاب الحياة، قد أكون بالنسبة لك مجرد صفحة عابرة تطوي ورقتها دون أدنى اهتمام، سوى أنني بالنسبة لي منتهى الشيء، وأبلغ الشيء، وكل شيء: صفحة لن تتكرر مرتين.

***

حين سألتنا المعلمة عن أمنياتنا ذات صغر، حدثتها إحدى الصديقات عن عدالة الله الظالمة التي تخيرت قوما على قوم ومدينة على مدينة. صديقتي كانت تعتقد أن الله ظالم لأنه لم يأت بالثلج إلى مدينتا، إذ كانت جل أمنيتها أن تشكل رجل الثلج، فتحيط بعنقه خمارا، وتزرع بدل أنفه جزرة.

يومها أجابتها المعلمة بما لمْ يُبلّغْني درجة الاقتناع ، إذ حدثتنا عن الفقراء وعن أن الله لم يأت بالثلج إلينا رحمة بهم من صقيع البرد. سألتُ المعلمة لحظتها دون أن أرفع أصبعي قائلة: ولمَ لمْ يجعلنا أغنياء مثلهم ليرزقنا الثلج ؟ فنهرتني، وزجرتني، وعاقبتني بكتابة درس القراءة عشر مرات. قالت أني قليلة أدب، أتكلم دون استئذان.

***

أرى أن تلك الأمور التي أنتقدها أو أُكَذِّبها، دائما ومهما مرّ عليها من زمن أتورّط أنا بها... وكأنها تتخيّرني لتقول ساخرة: وما رأيك الآن؟ رأيي الآن يعمل على ضرورة رفع راية البياض واعلان حيادي اتجاه الأشياء والأشخاص.

فالسلام... السلام أيها العالم.

***

يا الله، سامحني..

سامحني على كل لحظة اعتراض، قلت فيها: لمَ أنا بالذات؟

سامحني على كل دمعة سالت مني، وقلت فيها: لست أتحمل كل هذا.

***

ما تزال ذراعي تتعانقان بحب لتضُمَّان ذلك الشيء بداخلي، وأستند ببعضي على بعضي:

-أرجوك... أنتَ الوحيد الذي أطمئن إليه، وأعول عليه كثيرا.. كثيرا.

***

عندما يحدثني أحدهم قائلا: مللت أو أشعر بالملل، ثم أجده بعد ساعة يمارس أشياء كثيرة بعطاء سخي، أشعر أني وحدي من خاض في معنى الكلمة أشواطا وأشواطا. أن أقول "مللت": يعني أن قدرتي على البذل قد نفذت تماما، يعني أني أعيش خراب ما بعد العاصفة، أني تعبت.. يعني أن أي تشنج إضافي سيصنع مني مجرما لا محال.

***

والآن ليخبرني أحدكم، أين كنت أنا من هذا الوطن حين كنت أتسوّل حقوقي البسيطة منه؟ أتلقى ضربة شهادتي الجامعية على وجهي من موظفيه العابسين، الساخرين:

-ورقتك يا هذا لن تفيدك بشيء هنا.

أين كنت منه حين غادرته كسير الأمل، منتكس الطموح .. بائعا آخر ممتلكاتي الفقيرة لألتجئ إلى وطن آخر؟

ها.. الآن وقد صار لحضوري الصفري قيمته، تبين لأحدهم أن يكتب إلي: أين حق وطنك عليك؟

وأكتفي بحق ضحكتي.

***

كم كنت مغفلا..

كم غالطتني أفلام الصبا...

كنت أظن أنه يكفي أن يتشبث أحدنا بأنفاسه ليحيا، أن منبع الحياة يكمن في إصرار الواحد منا على النجاة من الموت، أن دواخلنا هي منشأ كل شيء ومنبع كل شيء.

لقد.. لقد أخبرته بأنه قوي، وسيجتاز آلامه، ليغالب صلابة جسده البارد..

لكنه لم يستجب ..

لم يسمعني..

لم...

لم يتكلم.

***

واني لأستغرب من قول أحدهم: "ياك الهدرة غير باطل".

لو يدري أحدهم حجم المعاناة التي أعيشها وحجم الجهد الذي أبذله كلما وجدتني في مأزق كلام لا أرغب به.

***

طيلة سنواتي الفائتة وأنا أشعر أن حياتي لم تبدأ بعد، وإلى اليوم وأنا أنتظر شيئا ما لا أعرف ما هو لينقلني من حياتي التجريبية إلى حياتي الحقيقية.
ماذا لو كانت كل السنوات الفارطة حياة حقيقية؟
ماذا لو مت الآن؟

***

في اللحظة التي ألتحف فيها غطائي القطني على بعد خطوات من المدفأة.. وأنا أمارس طقسا من طقوس النعيم عبر شاشة الهاتف التي تأخذني إلى حيثما أردت، ثمة في صقيع الشارع شخص مازال يجاهد جوعه وبرودته لينام في العراء.

***

على الجهة الأخرى من المتنزّه، رأيتها وهي تجلس على الكرسي المقابل لكرسيه، بعد لحظات ابتسمت، تكررت ابتساماتها، تلوّنت، تحركت شفتيها، قالت شيئا ما يشبه الـ "نعم"، تقَدّم نحوها، سَلَّمها هاتفه، كتبت شيئا ثم

تفَحّصت هاتفها المُضاء، ابتسما مجددا... ابتسما مطوَّلا هذه المرّة، ورحلتُ أنا وقد شهدتُ بداية البداية.

***

لم أستطع أن أسامح نفسي على خطيئتي، لم أستطع أن أُخرس هذا الصوت بداخلي أو أن أصمد أمام جلاد: كيف فعلتَ ذلك؟ أنا أتألم كل يوم، كل يوم أنتقم من نفسي بارتكاب المزيد من الأخطاء... المزيد من السوء...المزيد من البشاعة، يؤلمني كثيرا قولهم لي بأني انسان لطيف وجيّد، ووحدي من يُدرك أني لستُ كذلك.

***

للمرة اللا أدري، أجدني أبتسم بسخرية مني وأنا ألتفت إلى أشياء سلبتني راحتي، وهدوئي، ونومي، ودمع العيون. أتفحّص انكشاف الحقائق المتوارية.. مآخذها، دروبها، نهاياتها لو كانت. أتمتم حمدي بخجل، وألوم نفسي: متى يتعلم هذا الانسان بداخلي؟ متى يسكت صوت الجزع ساعة التألم؟

***

الذي كان يحصل.. أنني وفي لحظات كثيرة كنت أنصبُّ بكامل غضبي على الأشياء التي أحبها. أمزقها، أكسرها، أحرقها، أنتقم منها وكأنها هي السبب لا شيء آخر، كنت كلما أحببت تلك الأشياء أكثر كلما بالغت في حجم أذيتي لها أكثر وأكثر، كنت أفعل ذلك وأجلس إلي كطفل فجّر بالونه بنفسه ثم أخذ يبكي معارضا الواقع أمام أمه، لكنني ما كنت أشتكي لأمي، كنتُ فقط أكره نفسي وأقول بأنني لا أستحق شيئا.

***

"صمتي" الذي يتبع غضبي أو خيبتي أشبه بشخص يجلس على الشوك محاولا أن يجد وضعية متأقلمة وأقل وخزا.
أفترى لو لاطفت شخصا يجلس على الشوك وربتت على كتفه أو مازحته ليضحك؟ فإن أي اهتزاز منه سيعرّضه لوخز أعمق واستنفار أكبر. تماما... تماما هذا ما يحدث بداخلي كلما انغمست في حالتي الشوكية، لهذا أرجوكم لا تحاولوا أن تكونوا لطفاء معي حينها، لا تحاولوا أن تكونوا شيئا...
فقط ابتعدوا ريثما أستعيدني.

***

شعرت دائما بأن غدنا لن يكون كيومنا، وأن الأمر سينتهي في لحظة ما لتنتهي معه كثير أشياء، ورغم ذلك لم أحاول أن أفهم أسباب ذلك. تماطلت... تماطلت الأحداث قبل النهاية على نحو غريب... على نحو سعيد، والمزيد من التماطل والسعادة، كان يعني المزيد من الغرق، المزيد من التفاصيل، المزيد من الذكريات.. والمزيد من الألم.

***

سيء أنت لأنك ابن هذا المكان، وجميل أنت لأنك ابن ذاك المكان.. فمن الذي صنع صورة المكان، ولغة المكان، وتاريخ المكان، إلا أناس قبلي لا أعرفهم ولا يعرفونني!؟

أنا ما اخترت وطني، ولا لغتي، ولا تاريخي، ولكنني أحاول أن أصنع لهذا الانسان بداخلي مساره الذي يبتغيه، فإن أسأت فلأني أنا، وإن أصبت فلأني أنا، فلا تربطوا اسمي باسم هذا المكان.

***

عندما ساءت بيننا الأمور واتجهت صوب القطيعة، شيء ما يشبه النار أخذ يتأجج بداخلي كلما مر بي اسمك أو طيف ذكرى جمعتنا. يوم بعد الآخر واحتراق بعد احتراق، أخذت التفاصيل الجميلة تتساقط في هوة الاتهامات والكراهية. وعندما حصل ذلك، عندما كرهتك، كنت أظن أنني اخترت لك الجزاء الذي تستحقه على أفعالك، كنت أظن أنني بذلك أقصيك من تفكيري.. أزجك إلى زاوية بعيدة عني، إلا أنني في نفس الوقت كنت أحمل همّ أن نلتقي صدفة.. وأن كيف سنتصرف معا؟ وهل سنسلم على بعضنا؟ وماذا سنقول لبعضنا؟ و لأجل ذلك، كنت كثيرا ما أجري حساباتي المحتملة لكي لا تتقاطع بنا السبل ولا أضطر لرؤية وجهك الخانق، كنت كلما حدثني أحدهم عن مستجداتك إلا وأبديت عدم اهتمامي، في حين أن جيشا من الأسئلة الدقيقة كان يتبارز داخل رأسي.

خدعت نفسي.. خدعتني كثيرا حين اعتقدت أنك لا تستحق عفوي وتجاوزي لما حصل ، ولم أع بأني أنا من كنت أحتاج إلى ذلك لكي أتخفف منك وأطفئ نيراني.

***

نَحْن...

أصْحَابُ الشعور البَارد... اللا مبالون... محنطو القلوب، نكابر... نداري هشاشتنا وراء ملامح لا تشبهنا... نتألم في صمت، نبكي... نبكي كثيرا ساعة اختباء.

****

كل واحد منا وبطريقة ما، هو من هذه ال"هم"، هم السيئة، هم الجارحة، هم التي نتمنى أن تعمى عيونها وتقطع ألسنتها أو أن نعيش بمعزل عنها فلا تتقاطع دروبنا بها مجددا.

-أليس غريبا أن نجيد الشعور بالألم ومخلفاته دون أن نكف عن إيلام بعضنا البعض؟

****

عندما أخبرني صديقي بأنه يشعر بالملل وأن الحياة كئيبة وضيقة معه منذ أيام، جاريته من دون أن أشعر قائلا: "قاع رانا كيفكيف."

يشهد الله -أنه ومنذ أيام- والأمور تسير معي بشكل جميل ومبهج.

****

- لمَ هذه العزلة؟

- لأن الأشياء التي تحدو صوبي باتت ترتدي ثوب التضاؤل، تسقط... تتهاوى من عيني ومن نفسي ومن قلبي قبل أن تبلغني أو تصل إلي، أكتفي في جلستي الكئيبة برفع رجل فوق رجل، ألتفت نصفا وأشير إليها بيدي أن عودي من حيث جئت.

أنا بحاجة إلي -وحدي- أكثر من أي وقت مضى، بحاجة إلى أن ألملم ما تبقى بي من قوة فلا أتورط في انتكاسات قاضية.

***

عندما سألته عن صلة القرابة التي تجمعهما وقال أخي، كان ولابد أن أصمت فلا أزيد عن المعنى المشروح شيئا. " أخي" كلمة بالغة الاحتواء، والتشارك، والمحبة، وكل مرادف جميل من شأنه أن يصب في عمق هذه الرابطة الوثيقة، إلا أن العداء الذي كان يفصل بينهما جعلني ألتفت إلى قصص كثيرة من حولي لأقول: أشرس العداءات وأعنفها كان طرفاها أخوة أيضا.

***

لقد أسرفت أياما طويلة وأنا ألاحق عجلة المثير، والهام، والأفضل للحياة القادمة، أدور معها حيثما تدور دون أن أهب نفسي لحظة احتضان دافئ أو انصات حان أوقظ به حس الانسان في قلبي.
المؤسف بعد هذا كله أن لا حصيلة في الأمر إلا هذا الجسد المتهالك وهذه الروح المشتتة التي تنازع في فراغ موحش.

***

ها الآن وقد مرّ من العقود ما مر، لا أجد في يدي إلا عود الخشب هذا لأنبش به التراب بحسرة وأسى، وأبتسم نصفا كلما ارتفع صوت التنبؤات القديمة بداخلي وتذكرت قول بعضهم: سيكون لك مستقبل باهر !

***

أتدري ما المثقل في الأمر؟
هو هذه المسرحية الكئيبة والاستمرارية العرجاء التي نلزم فيها بدفع جثتنا الواهنة دفعا.. أنّه ثمة مرحلة ما نحتاج فيها لأن نقول للزمن تعطل قليلا ريثما نستوعب ما نمرّ به.

***

إنني بحاجة إلى عالم خاو من هذه المظاهر المثبطة والبهرجة السخيفة، عالم لا يعترف بالعادة ولا التقليد المتوارث الأعمى، عالم بسيط يحيا فيه المرء لأجل سعادته وراحته دون هذه الاعتبارات المرهقة.

***

هذه المرة بالذات وعلى غير العادة انغمس قلبي في طمأنينة عجيبة، رأيت الجمال كل الجمال وعوّلت على حدسي كثيرا، راهنت على نجاح الأمر، كنت واثقا من ذلك، لكن خديعة القلب أفحمتني.

***

في الوقت الذي كدت أصدأ فيه من الوحدة ولم أجد صديقا يشبهني ويعينني على مشقة الدرب، وكانت الخيارات المتاحة أمامي ممرات حقيقية نحو الضياع والانزلاق.. انتشلتني صحبة الكتب بأعجوبة، لقد أنقذتني القراءة.

***

ثم أنني وفي لحظات كثيرة، كنت آخذ ببعضي إلى بعضي، وألتجئ بكُلّي إليه:
-ترى كيف هو الحال لو لم تكن موجودا كما يزعمون؟ من يقتص لنا نحن الضعفاء، الفقراء، المهزومون الذين لا يملكون حولا ولا قوة إلا بك؟ من ينتقم لنا ممن تجبّر علينا بقوته، وسطوته، وظلمه، وعداوته؟ من يسمع شكوانا وخلجات أنفسنا ويدافع عن المظلومين في هذه البسيطة؟
العدل في وطني يا الله ظالم، ظالم جدا. أبي قُتل غدرا، وسُجنت أمي من بعده أياما، وقاتله اليوم ينقش لاسمه كتابته العريضة. وأنا... أنا لا أصدق أن الأمور ستنتهي بهذا الشكل؟ لا أصدق أن الحياة ستتوقف عند هذا المآل؟ دون جولة أخرى، دون قصاص يمتع فينا أمنية الانتقام؟
لابد من وجود ما هو أعدل، لابد من وجود ما هو أكبر.. والعادل هو أنت، والأكبر هو أنت، والآخرة هي الدار.

يا الله.

***

يتقلص إيماني بالعلاقات يوما بعد الآخر كلما رأيتهم يجاملون بعضهم بعضا، فإذا ما انسلّ منهم واحد تهامسوا عنه سرا.

***

صدفة غريبة أن يجمعنا اللقاء العابر للمرة الثانية في تمام السنة، لكن الممل في الأمر أن حديثك كما كان.. لم يتغير في مضمونه - وأبعاده - شيء.
إنّ العام الذي لا يجعلنا نكبر، ونتغير، ونختلف، ونتبدل عن أنفسنا السابقة عام ضائع من سجل العمر.

***

إنني لا أحمل همَّ كلفة الوصول..

إنني أحمل همَّ ملل الوصول.

***

(أعمى)
حين خانت العصا طريقي وارتطمت به، ثار في وجهي غاضبا:
- ألا ترى أمامك !؟

***

هذه المطاردة التي لا تؤدي أي مسافة ولا تتعدى محيط النفس مرهقة، منهكة إذ لا ترضى بتعريف اللحظة ولا تقبل اقتراح الحلول ، هذا التراخي المعلن، الثائر سرا .. هذا ال "بين بين" يقودك للصراخ المدوّي في نفسك:

- ماذا .. ماذا أفعل بي؟

***

ورحت أجري، وأجري، وأجري ... أفر من وقع صدمتي، أفر من مصيبتي.. من خرابي، من أحلامي التي انهارت أمام عيني فجأة. ولجت بيتنا.. دخلت غرفتي.. انزويت في ركني الموحش متسلما جهاز الايباد، ارتفع صوت أبي من وراء الباب: ستعمى عيناك من ضوء الجهاز.

كنت أعمى في تلك اللحظة، كنت غارقا في ملوحة نواحي الصامت.

شغلت محرك البحث، وكتبت:

لوكيميا.

***

صرت أخاف القراءة، أخاف الألغام التي تتفجر في رأسي كلما طالعت كتابا فلسفيا أو فكريا.

أفكاري الخبيثة التي كانت تتفتق كلما أوغلت في اللا مقروء، كانت تتصارع ضدي لتربك موضع الإيمان في روحي.. في الوجود.. في الغائب .. في القادم.. في كل شيء.

كنت أغلق الكتاب، أدفعه بعيدا.. أهرب.. أهرول إلى أقرب موضع سجود، أرجو تلك الأصوات.. تلك الذبابات أن تخرس قليلا، أن تكف عني، أن تموت الى الأبد .

كنت أدعوه، أدعوه كثيرا أن ينتشلني من لوثة العلم.

***

لَلّه أرحم بِي منكِ، فلا يساورنّك القلق اتجاهي أو أن يُضعِفك خوفك عليّ. ما ضرّني إن تفاقمت مشَقتي، وازدادت أوجاعي، واشتد الألم واحْتَمى، مادامت معيته ترعاني.. مادامت كفاي مبْسوطة لرحمته المُدهشة.

***

أخبرتك يوما أنني لم أعد أثق بأحدهم، وكنت حينها أحاول أن أرمم مسافاتي.. انتكاساتي.. اهتزازي، لكنها الآن لم تعد قضية ثقة واحتراس فحسب، أصبحت حالة تشوه أصاب الكثير من المعاني بالبشاعة، غدت قناعة متجذرة بأن لا أحد يكترث بأحد إلا بالشكل الذي يلائمه هو ويسد حاجة نفسه.

والآن، وكلما قال أحدهم: أنا أحبك.

أضحك.... أضحك كثيرا.

***

هُنا في هذه الغرفة المظلمة، في زاوية قصية، أغرز ركبَتَيْ في صدري، أضع كفي على وجهي. أبكي في مأتم صامت، أمسح عينَيْ، أشهق دمعتي، أستجمع قوتي.. مُكابرتي:

-لا يجب أن أفعل ذلك، لن يُغيِّر البكاء شيئا.

ألفني بذراعيَ، أضمني بشدة، وأتدَفَّق... أبكي بغزارة.

***

قد اختلطت الأشياء ببعضها وتداخلت، ولم يعد بوسعي الآن أن أميز الصالح فيها من الطالح، ثم أني لم أجد من فتوى القلب إلا أن أظن السوء بكل ما يجري أو يحدو اتجاهي.. وضريبة هذا الظن أيضا لم تكن جيدة على أي حال.

***

ما الذي من شأنك أن تغيره في النهاية حين أخبرك بأنني أصبت بالسأم وأن روحي ضاقت.. ضاقت جدا بما يجري؟
ما يكون قد حل بالمرء حين تمر به ضحكة الطفل العابر في الشارع فيلتقطها كشيء غريب، كشيء ثقيل يجعله يتساءل متعجبا: كيف له أن يضحك؟ أي شيء ههنا يستدعي شكل الفرح؟

***

الأمر الآن أشبه بفتاة تمرر يدها على دميتها القديمة، تتحسس تفاصيلها.. كل تفصيل ينبش في القلب ذكرى.. ذكرى جمال، وحب، وشغف، وانبهار، وفرح. تعني لها اللعبة شيئا ما لكنها لا تستطيع أن تلاعبها مجددا.. لا تستطيع أن تحاكيها أو أن تحتويها بذات الطريقة.

***

كنت أعيش زوبعة من نوع آخر، الريح العاصفة كانت هنا داخل رأسي تمتد بي بعيدا، تجعلني تارة أرتطم بعمود فكرة، و تارة أسقط في حفرة فكرة، وتارة أخرى أغرق في بحر فكرة. كنت مستعدا لتقبل كل تلك النتائج بتفاصيلها المشينة، لكنني كنت بحاجة إلى شيء واحد لأفعل ذلك: وهو أن أفهم فقط.. أن أفهم سبب ما حدث .

***

أتدري ماذا حدث حين أردت لنفسي أن تتخفف من برودتها وأن تتفاعل مع الأحداث بشكل حار ساخن؟ لقد شعرت أن معمل مناجم تفجر برأسي فجأة وأن قلبي بدأ بالتضخم والإعياء حد أنني لم أستطع في مرحلة ما أن أمرر الهواء لرئتي بشكل طبيعي سلس... وأنا لا أقول هذا بطريقة شاعرية ... أنا فعلا لم أستطع التنفس.

فهل تعي الآن بأن هذه الصفة السيئة المطبوعة في هي رحمة من الله بضعفي المستتر؟!

***

أحمل عبء هذه اللحظة الفارغة كشيء ثقيل.. ثقيل جدا لا أحسن التصرف به كما ينبغي.

أقف ههنا مدركا أن ما يمر من "وقت" لا يعود أبدا.

أعي أن عبور اللحظة هو "عمر" يشير إلى نقصان لا زيادة فيه.

يمر بي أثر الصالحين، الزاهدين، العابدين.. أهل الخبايا والأسرار فأغتم بي: ما الذي صنعته في أيامي؟ ما الذي أسعى إليه بالضبط؟

***

لا أحد منهم بإمكانه أن يفهم ذلك الشعور أو أن يدرك أن الجلوس وسط مجموعة من الناس لساعة كاملة يجعلني أعاني.. أعاني كثيرا وأتخبط وأتلوى داخلي، أشعر حين ذاك بسخونة في ظهري وأن الشوك قد نبت على جسدي كله، أشعر أن الهواء يتعثر في طريقه الى رئتي وأن رأسي على وشك أن ينفجر من حدة الصداع. إنني أضيق وأضيق بي ولا أنفك أدعو الله أن تنفضّ الجلسة لأذهب إلى حال وحدتي.

-أنا شخص لا يجيد تكوين العلاقات على أي حال ولا يحسن فيها إلا تحية الطرقات .

***

ما منعني من الاعتذار لحد الساعة هو أنني لم أجد الأمر منصفا بالنسبة لك. " أنا آسف" بدت لي وكأنها عبارة سطحية وساخرة أكثر منها موحية بالعوض. هل كان مؤذيا جدا، أو مدمرا جدا ، أو قاسيا جدا ما حل بك بسبب خطئي؟ لست أدري تماما، لكنني أعتقد ذلك وألوم نفسي كثيرا إذ لم يكن علي أن أفعل ما فعلته.

- صدّق أنني لازلت أنتقم لك مني في كل مرة يتاح لي فيها ذلك.

***

هكذا وبمنتهى البساطة تدعوني لأن أتجاوز قلقي ولا أفكر بالأمر وكأن شيئا لم يحدث، وكأن الأمر سهل جدا بالنسبة لي، كأنه يجب أن آمر نفسي فأقول: "يجب أن لا أفكر بالموضوع ولا أقلق أبدا، فيتحقق لي ذلك سريعا، وكأن هذه التداخلات النفسية شيء مادي كل ما يحتاجه زر"off" /"on" .

لا يا أنت، أنا لست آلة أتحكم فيها بمنطق عملي مباشر، أنا لا أتحرك ولا أنطفئ بضغطة زر... أنا متاهة.

***

نعم أستطيع. أستطيع أن أدير ظهري إليك كلما تقاطعت بنا السبل، وأن أكرهك وأسقطك من اعتباراتي كلها، أستطيع أن أجعلك تغدو كغيرك من هؤلاء الغرباء الذين لا يعنيني من أمرهم أمر، أستطيع أن أقصيك إلى منفى الذاكرة لأشعر بوخز طفيف في قلبي كلما حضرتني ذكراك وأنتهي منك، لكنني أحمل في عروقي هَمَّ هذا الدم الذي يجمعنا.. هَمّ هذه القرابة التي سنسأل عنها غدا.. همَّ الرحم الذي سيقف بيننا هناك ليسألنا عن السبب الحقيقي؟ أتخيله سيسخر منا حين نجيبه عن مشاكلنا العويصة وأزماتنا الكبيرة: لم يدعني لحفلة، ضرب ابني، لم يهنئني في ابنتي، سخر مني، أكل ميراث أبي.. وتلكم القضايا المكررة منذ الأزل.

إنه لا أسهل من القطيعة حين تكون أهنأ الحلول لمشاكلنا، لكنه الوصل من يحتاج مرارة صبرنا.

***

إنني تماما كمن يعدو، ويعدو، ولا يريد أن يلتفت إلى الخلف، كأنني أفر من حقيقة ما، كأنني خائف من شيء ما، لست أدري.

أنا فقط أجري... أجري، ولا أريد أن أفكر بما حصل ورائي.

***

في لقاءاتنا الأولى استفاض في حديثه المنزعج من الناس وآرائهم وانتقاداتهم المتواصلة لشخصه، وكان علي يومها أن أتعاطف مع فكرة أن: الناس لا يتركون أحدا وشأنه.

بعد مدة من احتكاكي به وجدتني أصطف بذات صف الناس، أمرّ بطباعه المشينة، وأخلاقه المعيبة وأقول :

-لم يقذف الله الكراهية في قلوب من حوله له من خواء، وفي الرؤى المشتركة بين الآخرين اتجاهنا علامة، ودلالة لو نتفكر.

***

لقد أسرفت من العمر سنوات عديدة وأنا في وضعية أشبه بمهنة الحارس المتأهب الذي يخشى تسلل المجرمين إليه.

وإني الآن بحاجة لأن أرتخي... أن أرتخي تماما وأتقاعد من حذري دون أن أهاب شيئا أو أفكر بشيء .

***

ترهقني تلك التفاصيل الصغيرة، وكيف أنني أظهر في تلك المواقف على غير احساسي الحقيقي اتجاهها.. بارد، وجاف، ومتصحر المشاعر.. يضايقني أنني لست أعرف كيف أعلن اهتمامي أمام شخص يشتكي لي همه اليومي ولا كيف أسايره في انتقاء كلمات المواساة والاحتواء كما ينبغي، رغم ذلك الشعور الذي قد يتمزق بداخلي لأجله، يدهشونني أولئك المستفيضون في بث دفئ تجاوبهم مع الآخرين، وأنا على الأغلب أحسد طراوتهم.

***

كيف لي أن أصف لك شعوري الآن؟ أنا في هذه اللحظة كمن يحمل صخرة ثقيلة على قلبه، وكل شيء يهوي به نحو الأسفل، نحو التراخي، والذبول، والإعياء، ورغبة التلاشي.. في حين أنه ثمة شخص يقابلني يتصرف بطريقة مصرة على الحماس، ويسألني أسئلة عبثية عن وجبتي المفضلة!
آه، لو يخرس قليلا!

***

إلا أنني ما عدت أدري، إن كان هذا الذي يموج بداخلي ناجم عن حساسية مفرطة تضخم الصغائر، أو قدرة احتمال فائقة تهين ضخامة الأمور!؟

***

لا شيء يبقى على حاله، نحن نتغير كثيرا بمرور الأحداث والأشخاص والمواقف، وحتى تلكم الأشياء التي أصابنا فيها عجز التخلي واستحوذت على جل اهتمامنا فإن مصيرها غالبا إلى "الذكرى."

بعد عشر..

بعد عشرين..

بعد ثلاثين سنة.. لن نحمل منا غير أسمائنا.

كان...

- مات فجأة!

- لكنه أدرك - ولزمن طويل - أن حوادث جسده المترهل كانت تخفي بؤسا ضاربا لم يشأ الكشف عنه، كان يقول بأن الأطباء مرض، وأن الجهل رحمة.

***

لم تكن مشكلته في شعوره بالدون، أو أنه أقل شأنا وتميزا منهم، آمن دائما بوجود شيء مختلف في نفسه، ولكنه كان عاجزا عن كشف شكل هذا الشيء وماهيته، وكانت هذه المطاردة الصفرية مظلمة جدا بالنسبة له ومثيرة للإحباط.

***

أسوأ أزماته: أن تلك الأشياء العادية والبسيطة لدى الآخرين مما يمرون بها بعقل لاه وعيون مغمضة، كانت تستنزفه حد المعاناة.

***

كان صدقه مع الآخرين يتقدم أقواله وأفعاله كلها، ورغم حيلة البعض معه، رغم كتفيه المهدودتين وتعطل العديد من مصالحه، كانت حكمته في الحياة ما ورثه عن جده الذي كان يقول: " مول النية يربح."

صاحب النية النقية يا صديقي يكفله الله.

***

في السنة السابعة اهتدى إلى ضرورة أن يتصالح مع وضعه الجديد وأن يتقبلّه بما فيه، اقتنع أخيرا أنه يجب أن يهدأ، أن يتكيف، أن ينظر إلى الأمر الحاصل على نحو مختلف، وأن يتجاوب معه كيفما هي حاله، سبع سنوات ظل يمارس فيها تخبط الشاة بعد الذبح، تلوى في كل الاتجاهات وهو يجلس على حافة الحقيقة يسلخ معطياتها بإنكار. غضب كثيرا، لعن الواقع مرارا، تأفف ألفا... وحين الْتفت إليه، أدرك أنه لم يكن يسعى إلا إلى إحراق أعصابه، وأن الحقائق لا تُغَير برفض نفسي.

***

يصعب على من هو مثله أن يتعايش مع الفراغ، ما يفعله اللا فعل داخل رأسه أشبه بتفتيت الصخرة الكبيرة بمطرقة صغيرة.

***

في لحظة غبن غاضب تمنى لسيارته المتهالكة أن ترتطم بشيء ما يخربها إلى الأبد عوضا عن عبء إصلاحها المتكرر. هو لم يكن يملك ثمن غيرها.. لم يكن يملك خيارات بديلة من شأنها أن تحسن أوضاعه المزرية لكنه كان يريد لكل شيء أن يتعطل، ويفسد، ويتخرب دفعة واحدة، فلربما.. ربما تنعرج به شدة القهر إلى وضع مغاير ينعش أحواله الكئيبة.

***

أحيانا أخرى.. كانت علاقته بنفسه تشبه إلى حد ما صورة بئر عميق... عميق جدا يحاول أن يصل إلى مائه وليس في يده غير دلو مهترئ وحبل قصير.

***

شخص غيره، كان سيزهو بنفسه كثيرا وهو يشق آخر خطواته نحو هدف نبيل عمل لأجله طويلا، لكنه لم يفعل! هو ما زال ينتقص حقه الشعوري في الفرح، ويُصَنّف الأشياء الفارقة والمميزة في خانة العادي والأقل من عادي.

***

كان لهم كل شيء، أحب أطفاله بما يتعدى الحب ولم يسمح لأحد أن ينال منهم أو أن يصيبهم بخدش صغير، دافع عنهم مرارا وجعل العالم يبدو لهم كجنة آمنة لا ملمح فيها غير المحبة والسلام، وحين مات، لم يجدوا شيئا من عالم أبيهم، كانوا على الهامش.. أجهل وأضعف من أن يواجهوا شراسة الحياة وأوغادها.

***

.. وكانت مزيته، أنه رجل يحسن الاختباء. صامت على نحو غير مرئي وغير ملفت. غائب عنك رغم حضوره.. حتى أنّك لتخاله جثة فارغة من حياة . تذكرته بالأمس، أردت ان أستنطق منه سبب ذلك كله، إلا أنه رحل، مات بصمت أيضا دون أن يأبه لموته أحد.

طاولة وقهوة

- كيف أنت؟

- تماما كسمكة خرجت لتوها من الماء، لكن كل شيء هنا.. يتخبّط بداخلي.

***

أما أنا.. وعندما كنت أسمعهم يعبرون عن حبهم لك وسعادتهم باكتسابك كصديقة جيدة، لم أكن قط أشعر بالغيرة أو بذلك الوخز القلبي الذي لا يعجبه سماع ذلك، كنت فقط أبتسم بشيء من السخرية الممزوجة بالشفقة، كنت واثقا من أن عنق قلبك ضيق... ضيق جدا ويستحيل أن يتسع لأكثر من شخص واحد. أعترف أنني أحيانا كنت أشعر بالأسف حيال علاقتنا، كنت خائفا دائما من أن أخذلك في يوم ما.. أن أخذلك بطريقة بشعة لا تغتفر.. مزاجيتي اللعينة، رغبتي في الوحدة أحيانا، كآبتي الخانقة لأيام عديدة.. أشياء كانت تنغرس بيننا كجدار، ورغم ذلك أظن بأننا استطعنا أن نفهم طبيعة بعضنا جيدا، لم نعد نقول لبعضنا: " شكرا "جراء الأمور التي تستدعي " تكرار الامتنان" ، صار أحدنا يستفز الآخر بأشياء يكرهها لنضحك معا، نتحدث بعفوية أكبر ونتصرف كما يتصرف الأطفال

تماما، ولا يخجل أحدنا من سرد مواقفه المحرجة على الآخر وكيف أنه لم يحسن التصرف حين ذلك.

وأثناء دورة المشاعر مازال يأتيني قولك:

-أحبك

فأقول:

-وأنا أيضا أحبك.

-بحجم ماذا؟

-أحبك بحجم النملة.!

***

أتدري؟ لم أعد أومن أو أتقبل فكرة "الواسطة" التي ترشح فلانا لخطبة فلانة... يبدو الأمر أشبه بانتقاء السلع في السوق .

-ها.. وهل تؤمن بالحب وعلاقاته؟

-كلا، لا يعجبني ذلك أيضا ويهيأ لي أنه محض خدعة سرعان ما يكتشف زورها .

-إذن؟

-أؤمن بالوحدة!

***

-بدأت أجزم أن وراء كل قلب قاسٍ قصة تُبكي القلوب.

-قد يكون هذا مبررا لأي دراسة نفسية تقف في صفّ الدفاع عن جانٍ مظلوم، لكنني أتساءل مما إذا كانت القسوة التي تصل إلى أذية البشر مبررا يغفره قولنا : "هم سببي" عندما نقف أمام الله.

إنني أتساءل فقط..

***

-الضربات الموجعة لا تأتينا إلا من أقرب المقربين.

-البعيد بعيد حسب تعريفه، فكيف لمن لا يعرفك، ولا يتواصل معك ولا تشعر اتجاهه بشعور خاص أن يضرك حد الألم؟

-بمعنى؟

-بمعنى أن التخصيص الأول يحتاج إلى إعادة نظر، وأن مكانة الشخص لديك هي من تحدد حجم الوجع اتجاه أفعاله.

***

- تحقق اليوم ما تمنيته، وانتظرته مطولا.

- أخيرا... هذا خبر رائع، أنا سعيد جدا لأجلك.

- لكنني لا أشعر بالفرح.

***

-أترى؟ قد مر التاريخ الموعود دون أن يحصل شيء من ذاك.. ما حلمنا بالظفر به، ما سعينا إليه وخططنا لأجل بلوغه، ما ظننا أننا في الطريق الصحيح إليه لم يتحقق منه شيء، حصلت أشياء مختلفة تماما انعطفت بنا باتجاه مغاير .

-هل تشعر باللا رضى الآن؟

-لا، ليس ذلك ما أحاول قوله، لكنني أفكر في أن الأشياء ومهما اشتدت أرضيتها فإنها غير مضمونة، نحن لا نملك مما نملكه اسما أو نريده حلما إلا كمن يجمع الماء بين يديه، وطبيعة الماء في النهاية جريانه.

***

- أرجو أن تكف الأشياء السيئة عن الحدوث لك.

- أنا وأنت ندرك أنه لا مناص من ذلك، وأنه يستحيل عليَّ الفرار من الطائرة وقد حلقت في الجو، ما يزعجني هذه المرة هو هذا الانتظار المستمر.. انتظار الوخزة القادمة والضربة اللاحقة، هذا الفاصل الزمني بين كل ألم وألم حتمي أرهقني جدا ولم يعد يجعلني أستمتع بالأشياء الجيدة من حولي. أنا بحاجة لأن تندمج هذه الوخزات مع بعضها دفعة واحدة فيغزوني الوجع الفظيع مرة واحدة... مرة واحدة يتعطل فيها شعوري بالأمور السيئة إلى الأبد.

***

حين قلت: أشعر بالتعب.

قالت: وما الذي من شأنه أن يتعبك في حالك هذا؟

فأنا أنهض كل يوم لكي لا أفعل شيئا مجهدا، أنام إلى ما بعد التاسعة، آكل قليلا، أشاهد التلفاز، أتصفح الأنترنت، أقرأ أحيانا وأكتب في أحيان أخرى، أمارس أساليب الراحة على أتم وجه.

ولكنني :

متعب.

***

- ..... حسنا، بغض النظر عن مخاوفك، هل تحب أن تفعل ذلك؟

- نعم.

- إذن لا تتردد، تأكد أن طرق الحياة كلها مملوءة بالحفر والمطبات،، وليس ثمة سبيل خال من العراقيل، لكن الذي يصنع الفرق أننا وحين نتخير دروبنا عن محبة ورغبة فإننا سنواجه صعوباتها بقوة أكبر، وستغنينا لحظات الرخاء عن كل تعب بذلناه لأجل الظفر بما كنا نريده، لكن حين نسلك طريقا ما بقلب مقفل استنادا لاعتبارات اجتماعية مسننة العناوين فإن كل عثرة نستقبلها برغم تقدمنا واستمراريتنا، ستنال من استقرارنا ورضانا عن أنفسنا، وستأتي علينا لحظات كثيرة يجلدنا فيها الندم جلدا.

والآن..

أتراها؟

كل تلك الكتابات..

كل تلك الرسائل.. وما سعيت لشرحه والبوح به،

هي محض شكل من أشكال " اللف والدوران" حول شيء واحد.. واحد فقط، لكن لا نص منها كان قادرا على تجسيد الحقيقة كما هي.

الفهرس

جسور.....7
صمت.....8
صوت.....10
صورة أخرى.....12
عالم وردي.....13
ذنب 16
حبر وورق.....18
لحظات.....20
تسليم 21
نصح.....22
اسم لامع.....23
اختلاف.....25
بشر.....27

نهاية.....28
انزلاق.....30
فساد.....31
علاقات 32
سلوك.....37
قلب أبيض.....38
بعض أشياء 39
مرآة.....54
كان.....84
طاولة وقهوة.....88
والآن.....95

صدر للكاتبة:

جَلْسَة مُغْلَقَة

نجود بلعالية

نَحْن...
أصْحَابُ الشُعور البَارد...
اللامبالون..
محنطو القلوب..
نكابر...
نداري هشاشتنا وراء ملامح لا تشبهنا..
نتألم في صمت..
نبكي..
نبكي كثيرا ساعة اختباء.